روزبري عن غلادستون

اشرنا في الجزء الماضي الى الخطبة النفيسة التي ارتجلها اللورد روزبري في مجلس الاعيان تأبيناً لغلادستون ووعدنا بترجمتها في فرصة اخرى . وانا مجزون وعدنا الآن لا لأنّ في هذه الخطبة فوائد جديدة لم تُذكَر عن غلادستون بل لانها من ارفع الادلّة على كيفية تقدير الامم المرتقية قدر رجلها . قال :

ايها السادة . يظهر بادئ بدء ان زعيمَي الحزبين في هذا المجلس لم يتركا قولاً لقائل بعد ان ابديا ما ابدياهُ من شرف العواطف باصح عبارة . ولقد كنت آخر خلّف لغلادستون في منصبه وشاركتهُ مدة العشرين سنة الاخيرة في كثير من امر مهامه ولذلك قد تسمحون لي ان اقول بعض الكلمات في هذا الموضوع وفي هذا المقام

ايها السادة لقد قال رئيس وزرائنا الآن انهُ لم يحن الوقت الذي تُعرَف فيه منزلة غلادستون تماماً في تاريخ الانسان وهذا صحيح لان قربنا منهُ يجعلنا نقتصر على رؤية المكان الفسيح الذي يشغلهُ والسلطة العظيمة التي كان يتسلّط بها على عقول الناس والعلاقة المستمرة التي كانت لهُ بكل مهام عصره . ولكن لتقدير منزلته يقتضي المقابلة النسبية بينهُ وبين غيره وهذا ما لا نستطيعهُ الآن فلا بدّ من تركهِ الى مستقبل الايام الى جيل آخر غير جيلنا يرى مزاياهُ ويقابلها بمزايا غيره فيقدره قدرهُ . ويقال مثل ذلك عن عقلهِ واخلاقهِ وفي على كلّ اوسع نطاق من ان نحاول الكلام عنها في هذا الوقت وفي هذه الاحوال . ولكني اقتصر على ذكر كلمات لا اظنها كانت قائلة المركيز الشريف (لورد سلسبري) لما استعفى المستر غلادستون من رئاسة الوزراء آخر مرة فانهُ قال " ان عقل غلادستون اسمى العقول التي استُخدمت سنين خدمة البلاد منذ وُجدت فيها الحكومة النيابيّة الى الآن " . وعندي انهُ قدر بذلك عقل غلادستون قدرهُ . وهنا امر آخر نشترك فيهِ نحن البشر اراهُ اوضح في غلادستون منهُ في غيره وهو انهُ كان يهذّب هذا العقل السامي ويدربهُ كل يوم بل كل ساعة بالجد والاجتهاد الى آخر يوم من ايام الصحة حتى اذا صار عقلهُ آلة في غاية الكمال مسها ملاك الموت فاوقف حركاتها

ايها السادة كان في عقل غلادستون صفتان لا يسعني الاّ الاشارة اليهما في هذا الموقف لانهما تميزانهِ تميزاً تامّاً عن كل العقول التي عرفتُ اصحابها . الصفة الاولى مقدرتهُ العظيمة على حصر افكارهِ في موضوع واحد . فانهُ لم يقم في المكونة على ما اظن رجل مثلهُ

يستطيع ان يوجه كل قوى عقله وكل جوارح نفسه في لحظة واحدة الى اي موضوع كان ويجعلها تشتغل كلها به . والصفة الثانية نادرة ايضاً ولكنها غير متصلة بالصفة الاولى وهي كثرة المواضيع التي كان يلتفت اليها ويهتم بها . فانهُ لم يقم في البلاد الانكليزية منذ اول عهدها الى الآن او لم يقم فيها في العصور الحديثة على الاقل رجل مثلهُ اتصل بحياة البلاد العقلية من كل وجوهها مدة سنين كثيرة . وهذا الامر الاخير ليس في الحقيقة قوة من صفاته العقلية بل هو خلق من اخلاق نفسه لان الخلق الاشهر والاظهر من اخلاق غلادستون هو مشاركتهُ لعموم الناس من غير استثناء . ولا اعني بذلك الآن اهتمامهُ بكل المسائل الكبيرة وبكل الامم المظلومة وبما كان يعدهُ لازماً لعتق الناس من قيود الذل والاستبداد ولكني اعني اهتمامهُ بكل طوائف الناس من الرفيع الى الوضيع ومشاركتهُ لهم في ما يشعرون به ومشاطرتهم السرَّاء والضراء . وهذا في ما اظن سرٌّ من اسرار سلطته على قلوب معارفه . واسمحوا لي ان اذكر لذلك مثلين ايضاحاً لما أُريد . الاول انني لما زرتُ مدلوثيان (المكان الذي كان غلادستون ينوب عنهُ في مجلس النواب في اواخر ايامهِ) اول مرة مع غلادستون تبعتنا جم غفير يصرخون باعلى اصواتهم . ولما ابعدنا عنهم كثيراً عجزوا عن الجري مع مركبتنا الاَّ واحداً منهم فانهُ بقيَ يجدُّ في اثرنا مسافة ميلين واخيراً رأى نفسهُ عاجزاً عن ادراكها فوقف ونادى باعلى صوته قائلاً " مرادي ان اشكرك يا سيدي على خطبتك للعمال " . ولا اظن ان كثيرين منكم ايها السادة يتذكرون تلك الخطبة ولا يهمني الآن ماذا كانت ولكنَّ القاءه خطبة على العمال بلغة يفهمونها وباصطلاحات يعلمونها خطبة تعزيهم وتخفف مشاق الحياة عنهم حتى يشكروا الخطيب عليها ليس بالامر السهل على ما نظن

والمثال الثاني متعلق بشخص من ارفع الناس مقاماً . فان آخر كتاب كتبهُ غلادستون يدعو كتبهُ الى لادي سلسبري (زوجة لورد سلسبري) على اثر ما اصاب مركبة كان اللورد فيها . وهنا تظهر اخلاق غلادستون فانهُ وهو في اشد الضيق والالم حينما كان يصعب عليهِ ان يمسك القلم يدعو كتب كتاباً الى زوجة اعظم خصومهِ في السياسة يظهر فيهِ مشاركتهُ لها في الجزع على ما اصاب زوجها . نعم ان مشاركة غلادستون للناس في سرَّائهم وضرَّائهم كانت من اخص اوصافهِ

وهناك امر آخر ذكرهُ المركيز الشريف (سلسبري) فاشير اليهِ بكلمة وهو شدة تديُّن غلادستون فقد تهكَّم البعض عليهِ لتديُّنهِ واساؤا الظن بهِ لكنهم في ضلال مبين من هذا القبيل لان تديُّن غلادستون كان على اتم الاخلاص كما يعلم الذين يعرفونهُ جيداً وكان

هذا التدين مستولياً على كل عمل من اعماله. كان ايمانه خالصاً بسيطاً كايمان الطفل وقد اثبته له الاختبار الطويل وحققته له الرجولية. وعلى ذكر الرجولية اقول انه لم تكن كلمة ادور على لسان غلادستون من هذه الكلمة فاذا تكلم عن رجل قال بصوت لا يمكن ان يساء سامعوه "ان هذا الرجل فيه من الرجولية ما يحمله على هذا العمل" "وذاك فيه من الرجولية ما يحمله على ذلك". وما من احد يستطيع ان ينسى نغمة الازدراء والاحتقار التي كانت ترافق كلامه حينما يقول "ان ذاك الرجل ليس فيه من الرجولية ما يحمله على هذا العمل او على هذا القول". ويظهر من كل ما قاله ومن كل ما فعله انه كان يتخذ الرجولية عنوان الشجاعة والاقدام والاستخفاف بالمخاطر وانه كان يجعلها الحد الاسمى بين صفات الانسان

وهذه البلاد — هذه الامة تحب الرجل الشجاع وقد كان غلادستون اشجع الشجعان. فلم يخش من الاخذ بعمل معه قط الناس من النجاح فيه ولم يثن عزمه عن امر مهما اشتدت المقاومات له. ولقد كان يتمنى ان تكون له فترة بين انتهاء اشغاله السياسية وانتهاء حياته الدنيوية فنال ما تمنى انقطع عن السياسة منذ اكثر من اربع سنوات استعداً فيها للموت ولكنه لم ينقطع فيها عن الامة. فلو مات وهو في اوج سلطته كرئيس للوزراء فهل كان خصومه في السياسة يلطون بكل ما اجمعت الالسنة الآن على مدحه به من غير ان ينافضوه بكلمة. اما الآن فقد صمت صوت الانتقاد. صمت صوت الجدال. صمتت مناظرات الخصوم . . .

وفي وفاة غلادستون ايها السادة امر آخر يؤثر في اعماق النفس امر لم يشر اليه احد من السادة الذين تقدموني فان افكارنا يجب ان تتجه الآن الى تلك الزوجة الفاضلة التي شاركت غلادستون في سرائه وضرائه مدة ستين سنة. التي كانت موضع ثقته التي كانت تشاركه في الظفر وتشد عزائمه في الفشل. التي باعتنائها ومهرها طال عمره الى هذا الحد. واري انه لا يليق بنا ان ندع هذه الفرصة تمر من غير ان نري زوجة غلادستون اننا شاطروها في الحزن عليه. وفي ما سوى ذلك لا ارى في هذه الوفاة ما يدعو الى الحزن الشديد. فلو كان في الطاقة ان نطيل حياة الانسان حتى يرى ابناء العصور التالية وجه غلادستون ويسمعوا صوته الذي لا مثيل له ويتعلموا من اخباره المتفرد في بابه لحق لنا الحزن والاسى كالذين لا رجاء لهم لوفاته. ولكن الامر ليس كذلك فقد تجاوز فقيدنا المدة التي يعيشها الناس غالباً وكانت الشهور الاخيرة من عمره شهور الم لا يوصف وضيق لا يعبر عنه وهو الآن في الراحة التي طلبها بكي تريحه من الحياة التي امست عبئاً عليه. حقاً ان حياة انقضت بعد عمر طويل يحف بها الشرف ويكللها المجد لا يدعو انقضاؤها الى الافراط في الحزن. الامة

التي انتجت غلادستون لم تزل حيَّة وستنتج رجالاً مثلهُ وفي الآن غنيَّة بما ابقاهُ فيها من آثارهِ غنيَّة بما ابقاهُ من سيرتهِ غنيَّة فوق ذلك كلهِ بما ابقاهُ من قدوتهِ الصالحة التي تدعو النفوس الى احتذائها وهذه القدوة لا تقتصر على امتنا وبلادنا بل قد شاركنا فيها كل الشعوب المتمدنة. وسيرى اهل العصور التالية في وليم اورت غلادستون مثالاً للعمَّة في العمل والصبر في الشدَّة والتقوى في التديُّن — في هذا الرجل المقدام الطاهر النبيل السامي الفضائل

العرافة والسحر والتقسيم

وآراء الاولين فيها

ملخصة من كتاب الفيلسوف هربرت سبنسر في اصول علم السسيولوجيا بقلم نسيم افندي برباري

اذا امكن للروح الشريرة ان تسكن جسد الانسان أفلا يمكن للروح الصالحة ان تسكنهُ ايضاً. واذا كان الجنون وتشنج المصروع وهذيان الابله ناتجة عن الارواح الشريرة أفلا يكون الذكاء الفائق والمهارة الزائدة ناتجين عن الارواح الصالحة. واذا كانت الروح الشريرة تدخل الانسان في حال اليقظة وتحملهُ على افعال لا قدرة لهُ على متمها كالعطاس والتثاؤب افلا تدخلهُ روح السلف الصالح وتعطيهِ قوةً فوق قوتهِ وتزيدهُ علماً على علمهِ

ويجيب المتوحشون على هذه الاسئلة كلها بالايجاب كما يُستدلُّ من معتقداتهم. فقد تقدم معنا انهم ينسبون قوة الجنون الفائقة الى الروح الشريرة التي فيهِ. وجاء في اساطير اليونانيين ان مترفا الهة الحكمة قالت لديوميدس مشجعةً اياهُ "قد وضعتُ في صدرك شجاعة ابيك كما كانت في صدر ذلك الجبَّار تيديس" وجاء في اخبار المصريين ان رعمسيس الثاني استنجد اباهُ امون فاجابهُ قائلاً "يا رعمسيس بن امون اني معك. انا ابوك رع . . . اني أساعدك مساعدة مئة الف شخص قد جمعوا سيفي واحد" ثم لما تقهقر جيشهُ وبقي يحارب وحدهُ قال اعداؤهُ "ان هذا الذي يقاتلنا ليس شخصاً من بني البشر"

ومما يجب الانتباه لهُ في هاتين الحادثتين ان روح السلف الصالح هي التي حلَّت في الجسد واعطتهُ قوة خارقة حسب معتقد اولئك الاقوام. ثم لما ارتقت تلك الروح حتى صارت الهاً ارتقت ايضاً قوتها التي كانت اصلاً اعظم من القوة البشرية قليلاً حتى صارت اعظم منها كثيراً